إنجيل متى ٤: ٢٣-٧: ٢٩

لغز الموعظة على الجبل

تأليف: تومي ساوث

وكان يسوع يطوف كل الجليل، يعلم في مجامع، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب. فذاع خبره في جميع سورية. فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة، والمجانين، والمصروعين، والمفلوجين، فشفاهم. فتبعه جموع كثيرة من الجليل، والعشر المدن، وأورشليم، واليهودية، ومن عبر الأردن.

ولما رأى الجموع، صعد إلى الجبل. فلما جلس، تقدم إليه تلاميذه. ففتح فاه وعلمهم قائلاً: ... (متى ٤: ٢٣-٧: ٢٩).

هذه الكلمات تهيئ الجو لأعظم موعظة في كل الأزمنة، أي موعظة يسوع على الجبل. هذا النموذج الرائع جداً والمليء بالحكمة جعل كثيرين لا يدرون ما إذا كانت موعظة واحدة أم مجموعة مختارات من مختلف العظات.

ربما يعرف قارىء الكتاب المقدس الأجزاء المختلفة للموعظة على الجبل: الـ «تطويبات» سلسلة من بركات على الذين يعيشون حسب معيار الملكوت (متى ٥: ٣-١٢)؛ الأعلان العظيم بأن أتباع يسوع هم «ملح» و«نور» (متى ٥: ١٣-١٦)؛ الـ «تناقضات»، سلسلة التباينات بين سوء فهم الناس لناموس موسى وما يعنيه حقاً (متى ٥: ١٧-٤٨)؛ والتحذيرات من أن «تصنعوا صدقتكم قدام الناس» (٦: ١-١٨)؛ السلوك الصحيح في ما يتعلق بالهموم المادية (متى ٦: ١٩-٣٤)؛ التحذير عن الرياء والمخادعة (متى ٧: ١-٢٣)؛ والخلاصة المثيرة المعروفة بمثل البيت المؤسس على صخر {أو مثل البيتين} (متى ٧: ٢٤-٢٩).

كل هذا معروف جداً، ومع ذلك، نجد فيه لغز: نحن نعرف الموعظة على الجبل، ولكننا لا نعلم تماماً ماذا نفعل بها! عندما كنتُ ماراً ذات مرة بمتجر الهدايا، إلتقطتُ شيئاً جميل الصنع محير يتركب من بضع أنواع الأخشاب. شُبكَت أجزاءه معاً بطريقة معقدة. وكانت الحيلَة أو اللعبة هي أن تحل أجزاءه ومن ثم تركبها مرة أخرى. لم أكن بارعاً في حل الألغاز أبداً. فبينما كنت أتعجب بجمال الأخشاب المطلية وببراعة الشخص الذي عرف كيف يصنعه بهذا الشكل البديع، لم تكن لديّ أية فكرة عما أفعل به. أي بعبارة أخرى، لم أكن أعرف القصد منه لأنني كنت معجب إعجاباً عظيماً بشكله الظاهري. هذا لا يعني ان القصد من الموعظة على الجبل هو ان تكون لنا لغزاً أو حيلة أو ارباك. انها جزء من مشيئة الله المعلنة، إذاً قُصدَ به ان يكون مفهوماً. ليست المشكلة في الموَعظة، بل فينا نحن.

يبدو ان الذي يحيرنا كثيراً في الموعظة على الجبل هو حقيقتها المطلقة، أي طبيعة متطلباتها لإحداث تغيرات جوهرية في الأفكار والعادات السائدة. على سبيل المثال: لم يقل يسوع فقط: «لا تقتل»، بل «لا تغضب»! قال لنا: «إن كانت عينك اليمنى تعثرك، فاقلعها وألقها عنك!» ماذا عن: «أحبوا أعدائكم»؟ ماذا عن الوصية ان لا نمتنع عن العلاقة فحسب، بل نصلي لأعداءنا ونعطيهم الخد الآخر بعد ان لطمونا!؟ تلخيصاً لكل هذا، قال: «لا تهتموا بحياتكم». يكون سؤالنا هو: هل يتوقع الله منا أن نفعل كل هذا؟ إن كان يتوقع هذا، «إذاً، من يستطيع أن

يخلص؟ »[1] لنلاحظ هنا ان الصعوبة التي نواجهها في الموعظة على الجبل لا تكمن في مقدرتنا على فهم ما كان يقوله يسوع بقدر ما هو في ان نعرف كيف وإلى أي حد نطبق ما قاله! لا عجب من انه بعد ما أنهى يسوع الكلام « بهت الجموع من تعليمه ».[2] نجد أنفسنا منبهتين معهم!

اقتراحات لفهم الموعظة

ان طبيعة الموعظة على الجبل الراديكالية والمطلقة قد قادت إلى تقديم اقتراحات مختلفة بما يختص بالكيفية التي يجب فهمها بها. سنلقي عليها نظرة شاملة الآن، ليس بسبب ان جميعها جديرة بذلك، بل لأنها تمثل الصعوبة التي تسببها الموعظة دائماً للمفسرين.

« الناموس الجديد »

قد لوحظ منذ وقت بعيد انه يبدو بان متى يصور يسوع كـ « موسى جديد ». وهذا يقود طبيعياً إلى الاقتراح بان في الموعظة على الجبل، كان يسوع يعطي « ناموسه الجديد » بالمقارنة بناموس الذي جاء قبله على الجبل وسلمها للشعب. بينما يوجد بعض التأييد لطريقة الفهم هذه، فانه من السهل التمادي فيها. على سبيل المثال، إذا كنا نعتبر الموعظة كوضع « متطلبات لدخول » ملكوت الله، نكون في خطورة الإنحراف إلى التقييد الحرفي بشرع الدين لا مبرر له. إذا كان صحيح ان الموعظة تضع خطوط عريضة عن « ما ينبغي أن تفعل لكي تخلص »، فلا عجب ان كثيرين قد أعرضوا عنها في يأس. من يقدر أن يفعل كل هذا؟ وخاصة في ضوء تصريح يعقوب القائل بان من خالف بنداً واحداً فقط في الشريعة يصير مذنباً في الكل؟ (أنظر يعقوب ٢: ١٠). من الواضح انه لم يقصد من تعاليم الموعظة أن تكون عبء، لأنها جزء من « الإنجيل »، أي الخبر السار. فان مقدمة الموعظة تعلن بركات على المستمعين. هذا يدل على انه لا يجب اعتبار الموعظة كقائمة منعزلة بالأشياء التي يجب عملها وما لا يجب. مضمونها ومغزاها هي حياة يسوع. هذه الموعظة هي بالحقيقة وصفة كاملة ليسوع! لهذا، فانها ليست مجرد ناموس جديد أو قائمة قوانين.

« التصورات غير العملية للمعلم الخيالي »

حسب إحدى المدارس الفكرية، كان يسوع يضع في الموعظة مجموعة من أهداف يمكن تحقيقها والتي يجب على لبشر ان يسعوا إلى بلوغها، دون التفكير بامكانية الحياة بهذه الطريقة. لأن معايير الموعظة عالية جداً، هذه فكرة جذابة، والتي تقال عادة كطريقة للتعامل بمتطلبات يسوع غير العادية.

ولكن في الموعظة نفسها، وُضعَ التوكيد على العمل بالتعاليم التي يعطيها يسوع، وليس السعي إليها فقط. ورد هذا في وقت مبكر من الموعظة عندما حذر يسوع قائلاً: « فإني أقول لكم: إن لم يزيد بركم على الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت الله » (متى ٥: ٢٠). هكذا أيضاً المثل الذي في نهاية الموعظة يقول: « فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أُشَبّهُ برجل عاقل، بنى بيته على الصخر... وكل منَ يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها، يُشَبّه برجل جاهل، بنى بيته على الرمل » (متى ٧: ٢٤ و٢٦). أذكر ان هذا المثل بدأ بإنذار شديد اللهجة: « ليس كل من يقول لي: يا رب، يارب! يدخل ملكوت السموات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات » (متى ٧: ٢١).

الفكرة القائلة بان يسوع قدم سلسلة من معايير لا يمكن بلوغها هي فكرة مخالفة للتصريح الذي ورد في الموعظة نفسها.

« مباديء اخلاقية مؤقتة »

يقترح آخرون بان الموعظة على الجبل تحتوي على تعليم اخلاقي قصد به ان يكون لفترة قصيرة من الزمان. تتوافق هذه الفكرة مع الإيمان ان يسوع كان يظن بانه سيكون

[1] متى ١٩: ٢٥.
[2] متى ٧: ٢٨.

وقت قصير إلى المنتهى، وكان يجب على أتباعه أن يعيشوا حسب تعاليم الموعظة على الجبل حتى يأتي ذلك الوقت. واقترح آخرون بان هذه التعاليم، قصد بها أن تكون «في فترة الحكم الألفي»، في ذاك الزمان حيث يعتقد بان يسوع سيحكم على الأرض لمدة ألف سنة. هذا ما ينبغي على تلاميذه أن يعيشوا خلال تلك الفترة.

ولكن المباديء الاخلاقية الواردة في الموعظة على الجبل لم تُقَدّم كمعايير غير عادية لأزمنة غير عادية. وإنما أُعْطيت كتطبيقات يومية في ظروف يومية – موقفنا تجاه الحياة بصفة عامة، وسلوكنا نحو الآخرين، والإخلاص للزوج أو للزوجة، والامتناع عن الانتقاد، العبادة بدوافع لائقة، إلخ. لا يوجد الكثير في الموعظة لدعم تفسير «المباديء الاخلاقية المؤقتة».

«المباديء الاخلاقية العامة لمجتمع محترم»

وجهة النظر هذه، هي عكس ما تقدم ذكرها. تقول بانه: عوضاً عن القصد بتعاليم الموعظة ان تكون لحالات غير عادية، انها ببساطة الطريقة التي يعيش بها الناس المحترمين وتحتوي على أفكار يعتبرها الجنس البشري بصفة عامة صحيحة وجيدة. ولكن اختبارات البشر تثبت بلا شك انها ليس كذلك. ان هذه المباديء ليست عادية وعامة، نادراً ما ينطبق هذا على عامة الناس انهم يعيشون بها. إذا كان هذا صحيحاً، لما كان على الموعظة على الجبل ان تجذب انتباه غير العادي كما فعلت. ذلك لأن تعاليمها أبعد بكثير من التعاليم العادية بحيث تفتننا وتأسر عقولنا، هذا إلى جانب، إذا كانت هذه مجرد اخلاقيات «لمجتمع محترم»، أين يوجد مثل هذا المجتمع؟ من يستطيع أن يشير إلى أمة أو مجتمع يعيش الناس فيهما بطريقة طبيعية تماماً كما وصفها يسوع؟

إن لم تكن هذه، فماذا؟

للأسباب الموضحة أعلاه، لا بد من رفض الطريقة العادية بالتعامل مع الموعظة على الجبل. لا يتعامل أي منها بالعدل مع الاصحاحات الثلاثة من إنجيل متى. ولكن لا يكفى أن يقال ما لا تضمنه الموعظة، ما زلنا نواجه السؤال عن كيفية فهمها.

ان الموعظة على الجبل هي وصفاً للكيفية التي يجب ان يعيش بها شعب الله في ملكوته. يوجد تباين بين الجموع الكثيرة المذكورة في متى ٤: ٢٥ وتلاميذ يسوع في متى ٥: ١ و٢. اجتمع حشد كبير، ومع ذلك، كان التلاميذ هم المستمعين الأقربين للموعظة على الجبل. وجه يسوع هذه الكلمات للذين تعهدوا ان يتبعوه. يتضح من متى ٧: ٢٨ بان الجموع كانوا يسترقون السمع لما كان يقال، ولكنهم ليسوا الهدف الأساسي لهذه التعاليم. وهذا يوضح القصد من الموعظة. يتوقع يسوع تطبيق هذه التعاليم في الحياة ولكن الذين قبلوا منه النعمة للقيام بذلك هم وحدهم يستطيعوا تطبيقها في الحياة. ان المحافظة على هذه المباديء هي بعيدة من ان تكون «ميول طبيعية» في البشر بصفة عامة، العمل بها هو أبعد من مقدرة البشر العادية، ولكن باستطاع البشر القيام بها بتقوية من روح الله. أنظر غلاطية ٥: ١٦ ، ٢٢–٢٤؛ أفسس ٣: ١٦؛ وخاصة رومية ٨: ١–٢٥). طبعاً، حتى عند التقوية بنعمته، لا نستطيع أن نحافظ على هذه المباديء بالكامل. ولكن يمكن أن تكون هذه المباديء اسلوب حياتنا العادية. بدون نعمته، سنسعى من غير جدوى لنجعلها كذلك. كما قال جيمس مونتقومري بويس: الموعظة على الجبل توجهنا إلى ضرورة الولادة الجديدة، مع انه لم يناقش ذلك الموضوع بطريقة مباشرة. الناس المتجددين هم وحدهم يمكن ان يعيشوا بالطريقة التي وصفها يسوع، ولكنهم يستطيعون. في الأصحاح السادس من الرسالة إلى رومية، يشرح بولس ان نعمة الله في المسيح تقوينا لنحيا حياة البر:

> إذاً لا تملكَنّ الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته. ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية، بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات بر

لله. فإن الخطية لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس، بل تحت النعمة (الآيات ١٢-١٤).

اني أتمتع دائماً بالطيران. اني أتعجب عندما أرى طائرات نفاثة كبيرة تقلع وتهبط. يبدو إليّ انه من المستحيل لتلك الطائرات أن تفعل ذلك؛ لا يسعنى إلا التعجب بها. ولكن ذلك لأنني لست ربان الطائرة. ولكن للذي تم تدريبه على الطيران لا يعتبر ذلك « أعجوبة ». هكذا أيضاً قد يبدو مستحيلاً ان يستطيع أحد ان يعيش كما وصف يسوع في الموعظة على الجبل. ولكن بالنسبة للذي تم تدريبه بنعمته، يمكن أن يفعل ذلك.

ان الموعظة على الجبل هي تفسير للكيفية التي يجب أن يختلف بها شعب الله عن الآخرين. ان مفتاح النص في هذه الموعظة هو ٦: ٨: « فلا تشبهوا بهم... ». ان دافع هذه الموعظة هو الطريقة التي يجب ان يحيا بها أتباع المسيح بالمقارنة بالطريقة التي يحيا بها الآخرون. انها تصف تحول جذري عن قواعد سلوك المجتمع بصفة عامة، بحيث وضع ر. و. ستوت لبحثه الممتاز في الموعظة العنوان المسيحي عكس الثقافة. ذلك ما يتبع تعاليم الموعظة ستخلق نوع من الثقافة يختلف عن مجاله مهما كان ذلك المجال.

وضعت الموعظة على الجبل بصفة خاصة عكس خلفية الديانة اليهودية عند الفريسيين. في هذا النظام قد تم تفسير ناموس موسى بطريقة غير سليمة وبصورة متكررة، بالتركيز غير الصحيح على الحرف عوضاً عن التركيز على روح الناموس. كانت هناك أيضاً إدانة من دلائل العهد الجديد، تشديد بالغ على الأشياء الخارجية. ولكن مهما كانت ظروفنا وخلفياتنا، فان موعظة يسوع تعطي بديلاً وتحدياً، لهذا السبب يصعب علينا تفسيرها. انها تتحدى انسجامنا كما تحدد بأغلب الطرق المحددة كيف يجب أن نكون مختلفين. تسأل الموعظة على الجبل ما إذا كنا نرغب في دفع الثمن لنكون أتباع يسوع، لنكون مختلفين، أن نكون واحداً مع « شعب الله الخاص » كان شعب الله تحت العهد القديم قد أدينوا جداً لأنهم لم يكونوا مختلفين عن الشعوب الذين كانوا حولهم (الملوك الثاني ١٧: ٧ و٨). لا يستطيع شعبه تحت العهد الجديد إلا ان يكونوا مختلفين.

الخلاصة

ان يكون المرء مختلفاً كما تطالب الموعظة على الجبل، يتطلب دفع ثمن غالي. ولكن كما تذكرنا التطويبات، نحن مباركين عندما ندفع ذلك الثمن. تعلمنا الموعظة كيف نكون مباركين. ولكن ينبغي أن نبدأ بتعهدنا الشخصي لنتبع ربنا ونكون من شعبه.

تطبيق الأسفار المقدسة

ابة لسؤالهم

تقدم مبشر في خدمة عسكرية أمام تلاميذ مدرسة ما في إنجلترا ليحدثم عن النظام المدرسي في أمريكا. وفي خلال فترة الأسئلة التي تبعت ذلك، قال تلميذ إنجليزي نمش الوجه: « قد استمعت إلى خطابك، ولكن ما أريد أن أعرفه هو الفرق بين التمساح والقاطور ».[٣]

من هو يسوع؟

الخالق الذي تجسد
السماوي الذي صار أرضي
الوعد الذي صار حقيقة
الإله الذي صار بشراً
البعيد الذي صار قريباً
غير المنظور الذي صار منظوراً
الأزلي الذي صار معاصراً
غير المحدود الذي صار محدوداً
المخفي الذي أعلن
الروح الذي صار جسداً
الحق الذي أخذ لنفسه شخصية
الكلمة الذي صار مسموعاً.

بقلم/ جورج إرل أوين

[٣] القاطور: تمساح أمريكا.

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧